تعلمونهن مما علمكم الله: وصفة أنه إذا أرسله استرسل. وإذا أشلاه استشلى (١) وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه ولهذا قال تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ واذكروا اسم الله عليه كما تقدم. فإن كان الجارح معلما وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله قتل الصيد وإن قتله بالإجماع. وقد ورد السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت يا رسول الله: إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله فقال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل مما أمسك عليك. قلت: وإن قتل؟ قال: وإن قتل ما لم يشركها كلب ليس منها فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره. . . . وفي لفظ لهما: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدركته حيا فاذبحه. وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله فإن أخذ الكلب ذكاته. وفي رواية لهما: فإني أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه. فهذا دليل الجمهور (٢) وقد جاء في تفسير الطبري (٣): "تعلمونهن: تؤدبون الجوارح فتعلمونهن

---

(١) أشليت الكلب ونحوه: دعوته إليك.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠ و ٣١

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٥٩

طلب الصيد لكم. مما علمكم الله: يعني بذلك من التأديب الذي أدبكم الله والعلم الذي علمكم" فكلوا مما أمسكن عليكم: فكلوا أيها الناس مما أمسكت عليكم جوارحكم (١)

واذكروا اسم الله عليه: واذكروا اسم الله على ما أمسكت عليكم جوارحكم من الصيد (٢) عن ابن عباس: إذا أرسلت جوارحك فقل: بسم الله، وإن نسيت فلا حرج (٣)

وبعد هذه الجولة الواسعة التي زمة مع مفردات هذه الآية الكريمة المتعلقة بحكم من أحكام الصيد، نستطيع أن نقول بشأن تفسير الآية الكريمة ما يلي:

يسألك أصحابك أيها الرسول الكريم والنبي العظيم بشأن ما أحل الله تعالى لهم أكله. قل لهم يا محمد إن الله تعالى قد أحل لكم أكل الطيبات من الأطعمة، وحرم عليكم أكل الخبائث منها، كما أحل لكم أكل صيد ما علمتم من الجوارح، أي سباع البهائم والطير مكلبين ومعلمين الكلاب في المقام الأول وما في حكمها من جوارح البهائم والطير تعلمونهن الصيد، وذلك مما علمكم الله تعالى إياه، فكلوا مما أمسكن عليكم إذا ذكرتم اسم الله تعالى إذا أرسلتم وسيلة الصيد،

---

(١) تفسير الطبري ٦/٦٣
(٢) تفسير الطبري ٦/٦٤
(٣) تفسير الطبري ٦/٦٤

وإذا أكلتم، واتقوا الله تعالى في السّتر والعلن، واعلموا أنّ الله سريع الحساب، وسيجازي كلّ عامل كلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

ومما يلاحظ على الآية الكريمة أنها تجمع بين مادتين: "جرح" و "كلب" في القول: ﴿عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ إنّ لفظ "الجوارح" يحمل معنيين: الكسب والعمل، وجرح الجلد وإسالة الدّم. فلمّا جاء لفظ: "مكلّبين" بمعنى مستعملين وسيلة الصّيد المدرّبة الجريئة على الصّيد الحريصة على قتله، ابتداءً بالكلب مروراً بالجوارح السّباع والطّير، لمّا جاء لفظ: "مكلّبين" أراد لفظ: "الجوارح" من الجرح بمعنى شقّ الجلد وإسالة الدّم. هذا هو لفظ: "الجوارح" مع إفادته المقدار الضّئيل من المعنى الآخر من الكسب والعمل.

والله تعالى أعلم.

د- ورابع هذه المواضع وآخرها، والمتعلقة بمادة: "جرح" في القرآن الكريم يتعلق بالآية الكريمة الخامسة والأربعين من سورة المائدة المدنية الكريمة. قال تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة له. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾

من المعروف أن هذه الآية الكريمة واحدة من مجموعة من آيات كريمات في سورة المائدة تتعلق بالأحكام التي فرضها الله تعالى على بني إسرائيل قوم موسى عليه السلام في التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام. وحينما يرفض بنو إسرائيل حكم التوراة في الزنا المحصن بالرجم يوصفون في تلك الآية الكريمة بالكفر، جاء تذييلاً للآية الكريمة الرابعة والأربعين قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ وحينما يظلم بنو إسرائيل بعضهم البعض الفئات على حساب فئات أخرى، كأن ينظر إلى ابن قريظة نظرة دونية، وإلى ابن النضير نظرة فوقية في مجال الأحكام (1) جاء تذييلاً للآية الكريمة الخامسة والأربعين قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ إن بني إسرائيل لم يتعدلوا في الأحكام.

وقد شعر بنو إسرائيل إلى إضفاء التشريعية على تحريفهم

(1) انظر تفسير ابن كثير 3/112

حكم التوراة برجم الزاني المحصن بترك حكم التوراة، والمجوء إلى محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم وبذلك يكتسب تحريفهم الحكم في الزاني المحصن الشرعية، خمسة تمنيهم. وقد حكم محمد صلى الله عليه وسلم في الزانيين المحصنين بحكم الله تعالى في كل من اليهودية والإسلام.

وابتدأ الحديث السورة الكريمة عن أحكام الله تعالى في التوراة، بما في ذلك حد الزاني المحصن، فإن الآية الكريمة التي نحن بصددها تتحدث عن مجموعة من الأحكام في التوراة. وهذه الأحكام في اليهودية هي ذات الأحكام في الإسلام. قال تعالى: وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

وكتبنا على بني إسرائيل في التوراة أن النفس تقتل بالنفس، وأن العين تفقأ بالعين، وأن الأنف يجدع بالأنف، وأن الأذن تقطع بالأذن، وأن السن تخلع بالسن، وأن الجروح يقتص فيها إذا أمكن كاليد والرجل ونحو ذلك من كف وقدم (١) وتقتص الجراح بالجراح (٢)

وتبين الآية الكريمة الثواب العظيم لمن عفا لوجه الله تعالى وتصدق بحقه فإن ذلك كفارة لذنوبه.

كما تقرر الآية الكريمة أن من لم يحكم بما أنزل الله تعالى فأولئك هم الظالمون.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٤

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٤

ومما يلفت الانتباه بشدة في الآية الكريمة ما يلي:

١- الترتيب العجيب لجنات المعنى، بحيث إن العضو الأول بالتقديم يتقدم، وذلك كتقديم النفس بالنفس، فهذه النفس تشتمل على كل الأعضاء المذكورة بعد ذلك. وكذلك العضو الأول بالتأخير يتأخر، وذلك كتأخير السن بالسن، فالسن لها أخوات مثلا.

٢- جاء لفظ الجروح في القول: ﴿والجروح قصاص﴾ وذلك بعد ذكر القصاص والأعضاء التي يقتص منها. فلفظة: ﴿الجروح﴾ في هذا الموضع من القرآن الكريم خالصة لشق الجلد وإسالة الدم. وبذلك يكون حظ هذا اللفظ هو الأكبر من حيث إفادته شق الجلد وإسالة الدم، بينما المواضع الثلاثة السابقة يتدرج حظها من إفادة الكسب والعمل، أو شق الجلد وإسالة الدم.

والله تعالى أعلم.

٣ - شريعة، وشرعة، ومنهاج.

إن أول ما نود أن نبينه هو أن كلاً من هذه الألفاظ الثلاثة جاء في القرآن الكريم مرة واحدة.

جاءت لفظة شريعة في سورة الجاثية، في الآية الكريمة الثامنة عشرة. قال تعالى: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾

وجاءت لفظتا شرعة ومنهاج معاً في سورة المائدة في الآية الكريمة الثامنة والأربعين. قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات. إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾

والملاحظ أن كلاً من ألفاظ الثلاثة تحمل له تطوراً في الدلالة وتحولاً من المرحلة المحسوسة إلى المرحلة المعنوية. ونود أن نبدأ حديثنا عن الكلمتين الكريمتين بالنظر إلى تطور دلالة هذه الألفاظ الثلاثة من المحسوس إلى المعنوي.

وأول ما نود أن نقرره هو أن كلاً من لفظ: "شريعة" و: "شرعة" له معنيان اثنان، الشروع في سلوك أول الطريق الموصل إلى الماء، والوصول الفعلي إلى هذا الماء الذي يرتوي منه الناس والأنعام. وبذلك تدل لفظتا "شريعة" و: "شرعة" في المحسوسات على أول الطريق إلى الماء وآخره،

على بداية الطريق ونهايته.

كما نود أن نقرر أن لفظ: "منهاج" يدل على الطريق الواسع، الواضح، السهل، البين.

وحيث إن هذه الألفاظ الثلاثة هي مفتاح دراسة هاتين الآيتين الكريمتين من ناحية إعجازهما في مجال تطور الدلالة، فإننا نود أن نبدأ بدراسة الألفاظ الثلاثة من الوجهة اللغوية أولا. ويلاحظ أن ما يقال عن لفظة: "شريعة" هو الذي يقال عن لفظة: "شرعة".

على شريعة: على طريقة وسنة ومنهاج (١) عن ابن عباس: شرعة: سبيلا. ومنهاجا: سنة (٢) ويقول الطبري (٣): "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا: الشرعة هي الشريعة بعينها، تجمع الشرعة شرعا، والشريعة شرائع. وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة، ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة، لأنه يشرع منها إلى الماء. ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع لشروع أهله فيه" ويقول ابن كثير (٤): "الشرعة هي ما يبدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع فلان كذا أي ابتدأ فيه. وكذا الشريعة وهي ما يشرع فيها إلى الماء"

---

(١) تفسير الطبري ٥/٨٨
(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٢٠
(٣) تفسير الطبري ٦/١٧٤
(٤) تفسير ابن كثير ٣/١٢٠

إنّ لفظ "شرعة" وكذلك "شريعة" يدلّ أساساً على الطريق الموصل إلى الماء (1) ثمّ أصبح كلّ من اللفظين يدلّ على الماء ذاته. ويُشترط في هذا الماء أن يكون مادّة دائماً غزيراً يسهل تناوله ومن شاء أن ينال منه اغترف بإنائه، وليس بحاجة إلى حبل ودلو مطلقاً. وفي المثل: أصعن الشقي التشريع، وذلك لأنّ مورد الإبل إذا ورد بها الشريعة لم يتعب في إشقاء الماء لها كما يتعب إذا كان الماء بعيداً، لأنّ من شروط الشرعة والشريعة أن يكون الماء ظاهراً معيناً (2) لا يُسقى بالرشاء (3) ثمّ أصبح كلّ من اللفظين يدلّ على ما سنّ الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والحجّ والزكاة وسائر أعمال البرّ (4) قال بعضهم سمّيت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إنّ من شرع فيها على الحقيقة المصداقة روي وتطهّر. قال: وأعجب بالريّ ما قال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أروى فلمّا عرفت الله تعالى رويت بلا شرب. وبالتطهّر ما قال تعالى (5): ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ (6) قال ابن عبّاس: الشرعة

---

(1) انظر اللسان: "شرع" وتفسير الطبري 6/174 وتفسير القرطبي 8/220

(2) الماء المعين: الماء المتسلسل والظاهر الذي تراه العين. مفردات الراغب الأصفهاني 2/461

(3) لسان العرب: "شرع" والرشاء: الحبل.

(4) انظر لسان العرب: "شرع" ومعجم مقاييس اللغة: "شرع" 3/262

(5) سورة الأحزاب 33

(6) مفردات الراغب الأصفهاني: "شرع" 1/340

ما ورد به القرآن، والمنهاج ما ورد به السُّنة (١) وقوله: (٢) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، فإشارة إلى الأصول التي تتساوى فيها الملل فلا يصح عليها النسخ كمعرفة الله تعالى ونحو ذلك مما نحو ما دل عليه قوله: (٣) ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا. ويقال: شرع الوارد يشرع شرعا وشروعا: تناول الماء بفيه. وشرعت الدواب في الماء تشرع شرعا وشروعا، أي دخلت. ودواب شروع وشوارع: شرعت نحو الماء (٤) وشرعت في هذا الأمر شروعا أي خضت (٥) وشرع فلان في كذا وكذا إذا أخذ فيه (٦) وقال محمد بن يزيد (٧): شرعة: معناها ابتداء الطريق والمنهاج: الطريق المستقيم (٨)

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني "شرع" ١/ ٤٠٣.
(٢) سورة الشورى ١٣ وقد أكملنا الآية الكريمة.
(٣) سورة النساء ١٣٦
(٤) لسان العرب: "شرع"
(٥) لسان العرب: "شرع"
(٦) لسان العرب: "شرع"
(٧) محمد بن يزيد المبرد ٢١٠ - ٢٨٥ هـ ٨٢٦ - ٨٩٩ م أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية بزمنه في بغداد الأعلام ٧/ ٢٤٤
(٨) لسان العرب: "شرع"

فإذا تحولنا إلى لفظة: «منهاج» تبيّنا أنها هي الأخرى خضعت لتطوّر الدلالة، وتحوّلت من المحسوس إلى المعنوي.

إنّ لفظة منهاج تدلّ في مجال المحسوسات على الطريق الواضح البيّن المستقيم الذي لا يعوج فيه (١) السّهل (٢) يقال: طريق نَهْجٌ بيّنٌ واضح. ومنهج الطريق: وضوحه. والمنهاج كالمنهج. وأنهج الطريق: وضح واستبان وصار نَهْجاً واضحاً بيّناً. والمِنهاج: الطريق الواضح. واستنهج الطريق: صار نهجاً (٣) وفي تفسير القرطبي (٤): «والمنهاج: الطريق المستمر».

إنّ كلّ الصفات الحسنة في المنهاج في مجال المحسوسات نتبيّنها في المنهاج في مجال المعنويات، من الوضوح، والبيان، والسّهولة، والاستقامة.

وبهذا يتبيّن بشأن هذه الألفاظ الثلاثة، الشريعة، والشِّرعة، والمنهاج، أننا في كلّ من المحسوسات والمعنويات بصدد أوّل الطريق ونهايته في حقّ لفظتي: "الشّريعة" و«الشِّرعة». وبصدد وسط الطريق في حقّ لفظة: «المِنهاج»

وبعد هذه الجولة الواسعة مع الألفاظ الثلاثة من الوجهة اللغوية في المقام الأوّل، وتلازمها نخلص

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: "نهج" ٥/٣٦٠ ومفردات الراغب الأصفهاني: "نهج" ٢/٥٠٦

(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٢٠ (٣) لسان العرب: «نهج»

(٤) تفسير القرطبي ٦/٢٠٨

المرحلة المعنوية، نتحول مستعينين بالله تعالى إلى الحديث عن الآيتين الكريمتين من سورتي الجاثية والمائدة، بين يدي تفسير الآيتين الكريمتين. ويكون حديثنا في جملة نقاط.

١- لفظة شريعة في سورة الجاثية تعني الشريعة الإسلامية، وكذلك لفظة: «شِرْعة» و«منهاج» في سورة المائدة. فنحن نتعامل مع هذه الألفاظ الثلاثة من الوجهة المعنوية.

٢- آية سورة المائدة تبين أن الله تعالى أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب العزيز بالحق، القرآن الكريم بالصدق، مصدقاً لما بين يديه من الكتب، أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (١) ومهيمناً عليه: شهيداً على الكتب قبله أنها حق من عند الله أميناً عليها حافظاً لها. وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب. يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده قد هيمن فلان عليه فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن (٢) فاحكم أيها الرسول الكريم والنبي العظيم بين اليهود وغيرهم بما أنزل الله تعالى عليك من أحكام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا تتبع يا محمد أهواءهم عما جاءك من الحق في الأحكام.

لكل أمة من الأمم جعلنا شِرْعة وشريعة وجعلنا منهاجاً خاصاً بهم. وكل هذه الشرائع والمناهج تفضي إلى غاية واحدة، هي توحيد الله تعالى وإفراده عز وجل بالعبادة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/١١٩ وتفسير الطبري ٦/١٧٢

(٢) تفسير الطبري ٦/١٧٢

فعلى سبيل المثال، أرسل الله تعالى إبراهيم عليه السلام، أبا الأنبياء بدين الإسلام، وأوحى إليه الصحف، وجعل له الحنيفية الأولى ملة له، ولها أحكامها التي قد تختلف عن غيرها من الشرائع لحكمة أرادها الله تعالى. وأرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام، وأوحى إليه القرآن الكريم، وجعل له الحنيفية الأخيرة الكاملة ملة له، ولها أحكامها. وإن الشيء نفسه يقال عن موسى عليه السلام الذي أوحى إليه عز وجل التوراة، وعن عيسى عليه السلام الذي أوحى الله تعالى إليه الإنجيل. وهكذا.

إن كل الرسل أرسلهم الله تعالى بدين واحد هو دين الإسلام لله تعالى رب العالمين. وجعل الله تعالى لكل رسول شريعته ومنهاجه الخاصين به. وكل الشرائع والمناهج تفضي إلى غاية واحدة، هي توحيد الله تعالى وإخراده عز وجل بالعبادة.

إن الله تعالى لو شاء لجعلنا في مجال الدين أمة واحدة أتباع رسول واحد، وكتاب سماوي واحد. ولكن الله تعالى شاء لنا هذا التعدد وذاك التنوع ليختبرنا الله تعالى فيما آتانا من شرائع وأعطانا من مناهج. ولله تعالى الحجة البالغة، والحكمة الدامغة، فله سبق الخيرات باتباع دين الإسلام الذي أرسل الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم، والناسخ لكل الأديان السماوية السابقة، ومن باب الأحرى والأولى الأديان غير السماوية، ولنتبع هدي القرآن الكريم وهدي سنة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولنعمل من دنيانا لآخرتنا، فإن دنيانا حياة العمل ولا جزاء، وإن آخرتنا حياة الجزاء ولا عمل. ولنوقن أننا إلى الله تعالى مرجعنا جميعا يوم القيامة، فينبئنا عز وجل بما كنا نختلف فيه من الحياة الدنيا من أمور الدين. إن الله تعالى وحده لا شريك له هو الذي يفصل بين الخلائق يوم القيامة فيثيب من أطاعه ويدخله الجنة، ويعذب من عصاه ويدخله النار، أو يغفر له جل وعلا إن شاء. لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه عز وجل.

هكذا يتبين تطور دلالة هذه الألفاظ الثلاثة: «شريعة» و«شرعة» و«منهاج» وتحولها من المرحلة الحسية إلى المرحلة المعنوية، وأن الآيتين الكريمتين من سورة الجاثية، وسورة المائدة، قد استعملتا الألفاظ الثلاثة في المرحلة الثانية المعنوية.

وهكذا تلحق هذه الألفاظ الثلاثة بأخواتها التي تطورت من المرحلة الحسية إلى المرحلة المعنوية الإسلامية، مثل ألفاظ الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

والله تعالى أعلم.

٤- ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾

بإذن الله تعالى سنتعامل مع لفظة الحافرة التي جاءت مرّة واحدة في القرآن الكريم كلّه وذلك في الآية الكريمة العاشرة من سورة النازعات المكية. وهذه الآية الكريمة من بين أربع عشرة آية كريمة تتحدث في أول سورة النازعات عن العديد من المسائل المتعلقة بالبعث بعد الموت. وثمة خطوات ثلاث ينبغي القيام بها.

الخطوة الأولى: تبيين المعنى اللغوي للألفاظ التي تحتاج إلى تبيين.

الخطوة الثانية: التفسير الموجز للآيات الكريمات.

الخطوة الثالثة: تبيين تطوّر دلالة لفظة الحافرة.

١- الخطوة الأولى تبيين المعنى اللغوي للألفاظ.

﴿و﴾ والنازعات غرقا: الواو واو القسم، والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف في تقديره: أُقسِم. غرقاً: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى (١) والنازعات: الملائكة (٢) تنزع أرواح الكفار (٣) غرقاً: نزعاً بشدة (٤) والمعنى: والنازعات إغراقا (٥)

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٣/١٨٩

(٢) تفسير الطبري ٣٠/١٨ وتفسير ابن كثير ٨/٣٢٥ ومفردات ألفاظ القرآن الأصفهاني "نزع" ٢/٦٣٠

(٣) الجلالين.

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطبري ٣٠/١٩

والنّاشطات نشطا: قال ابن عبّاس: يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلّ عنه (١)

والسّابحات سبحا: الملائكة (٢) عن مجاهد: الملائكة تسبح في نزولها وصعودها (٣)

فالسّابقات سبقا: الملائكة (٤) قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتّصديق به (٥)

فالمدبّرات أمرا: الملائكة. زاد الحسن: تدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض، يعني بأمر ربّها عزّ وجلّ. ولم يختلفوا في هذا (٦)

وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثنّ أيّها الكافرون (٧)

يوم ترجف الرّاجفة. تتبعها الرّادفة. عن ابن عبّاس، قوله: يوم ترجف الرّاجفة: يقول: النفخة الأولى. وقوله: تتبعها الرّادفة. يقول: النفخة الثّانية (٨) الرّاجفة: المضطربة، كذا قال عبد الرّحمن بن زيد. قال: هي

---

(١) تفسير القرطبي ٦٩٨٢ وتفسير الطبري ١٩/٣٠
(٢) تفسير الطبري ٢٠/٣٠ وتفسير ابن كثير ٣٣٥/٨ وتفسير القرطبي ٦٩٨٤
(٣) تفسير القرطبي ٦٩٨٤
(٤) تفسير القرطبي ٦٩٨٤
(٥) تفسير ابن كثير ٣٣٥/٨
(٦) تفسير ابن كثير ٣٣٥/٨
(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٨٩/١٣
(٨) تفسير الطبري ٢٠/٣٠

الأرض، والرادغة الساعة. مجاهد: الراجفة الزلزلة. تتبعها الرادفة: الصيحة. وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي النفختان. أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى. وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى. وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينهما أربعون سنة (1)

قلوب يومئذ واجفة: أي خائفة وجلة. قاله ابن عباس وعليه عامة المفسرين (2) يقول تعالى ذكره: قلوب خلق من خلقه يومئذ خائفة من عظيم أهوال النازل (3)

أبصارها خاشعة: أبصار أصحابها ذليلة مما علاها من الكآبة والحزن من الخوف والرعب الذي قد نزل بهم من عظيم هول ذلك اليوم (4)

يقولون أئنا لمردودون في الحافرة: يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من المشركين قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى تحيل الممات فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا وقبل مماتنا. وهو من قولهم: رجع فلان على حافرته إذا رجع من حيث جاء (5) ورجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء.

---

(1) تفسير القرطبي ٦٩٨٦

(2) تفسير القرطبي ٦٩٨٧ وتفسير الطبري ٣٠/٢٢

(3) تفسير الطبري ٣٠/٢٢

(4) تفسير الطبري ٣٠/٢٢

(5) تفسير الطبري ٣٠/٢٢

منها فحفرها أي أشرفها. كمشيه فيها. جعل أشرف مديه حفرا. وتوقعها العرب على أول أمر يرجع إليه من آخره(١)

أئذا كنا عظاما نخرة: نخرة بمعنى بالية (٢) والنخرة: البالية المتعفنة الصائرة رميما (٣)

قالوا تلك إذن كرة خاسرة: قالوا تلك، يعنون تلك الرجعة أحياء بعد الممات. إذن: يعنون الآن. كرة، يعنون رجعة. خاسرة: يعنون: غابنة (٤)

فإنما هي زجرة واحدة: فإنما هي صيحة واحدة ونفخة ينفخ من الصور (٥) وهي النفخة الآخرة (٦) والصور: مثل قرن ينفخ فيه (٧) "وهو أن يأمر الله إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون" (٨)

فإذا هم بالساهرة: يقول أبو حيان (٩): "والساهرة: وجه الأرض والفلاة، وصفت بما يقع فيها وهو السهر والخوف"

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤١٧

(٢) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٣

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤١٧

(٤) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٣

(٥) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٣

(٦) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٣٧

(٧) مفردات الراغب، أبو صفهان: "صور" ٢/ ٣٧٩

(٨) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٣٧

(٩) البحر المحيط ٨/ ٤١٧

ب - الخطوة الثانية: التفسير الموجز للآيات الكريمات:

يُقسِمُ الله تعالى بالملائكة التي تنزع أرواح الكافرين ساعة الموت بشدة، فكأنما ثمة فكٌّ بعنفة، والتي تستل أرواح المؤمنين برفق، فكأنما ثمة حلّ أنشوطة.

كما يُقسِمُ الله تعالى بالملائكة التي تسبح بين السماء والأرض، والتي يسبق بعضها بعضا سعيا لإنفاذ ما شاء الله تعالى وأمرها بفعله، فالمدبرات أمرا، وهي الملائكة التي تدبر بإرادة الله تعالى الأمور، وتدير الشؤون، وجواب القسم محذوف لأنه معروف والتقدير: لتبعثن أيها الكافرون.

إن من متعلقات يوم القيامة الصيحتين اللتين ينفخ بهما إسرافيل عليه السلام في الصور، وهو يشبه البوق.

إن الصيحة الأولى هي الراجفة والمزلزلة، وإن الصيحة الأخرى التي تتبعها وبينهما أربعون سنة كما جاء في الحديث النبوي الشريف. وإن النفخة الأولى تميت كل شيء بإذن الله تعالى إلا ما شاء الله تعالى من الملائكة والولدان، وإن النفخة الثانية تحيي كل شيء بإذن الله تعالى.

إن قلوب قوم في ذلك اليوم واجفة خائفة وجلة. وإن أبصارهم أصحابها خاشعة، منكسرة، ذليلة. ولأن هؤلاء الكافرين ينكرون البعث بعد الموت فإنهم يعتبرون عن هذا المعنى في أسلوب إنكار، أئنا بعد أن نموت ونتحول ترابا تذروه الرياح، ونصير عظاما بالية رميما متفتتة مرددين بالبعث أحياء مرة أخرى، وراجعون إلى الحياة كما كنا قبل الموت. أئذا حدث البعث بعد أن نغدو عظاما رميما، وهي أقوى أجزائه أجسامنا، إنهم يقولون هذا من باب الاستهزاء: إنا إذا

عندنا أحياءً مرّةً أخرى فلا شكّ أنّها كرّةٌ خاسرة، ورجعةٌ غير رابحة. إنّ هذا الاستهزاء منهم تأكيدٌ لإنكارهم للبعث بعد الموت.

وإنّ القرآن الكريم يقول لمنكري البعث: إنّكم لا تحتاجون من أجل البعث بعد الموت سوى زجرةٍ واحدةٍ من إسرافيل عليه السلام، وصيحةٍ واحدةٍ منه في البوق، فإذا أنتم على ظهر الأرض أحياء، من أجل الحساب، فالثواب والجنّة في حقّ المؤمنين، والعقاب والنار في حقّ الكافرين.

ج - تبيين تطوّر دلالة لفظة: "الحافرة"

لفظة الحافر، ولدت لفظة الحافرة، يُحلّ منهما علاقة بالمثل العربيّ المشهور: النقد عند الحافرة، والنقد عند الحافر (1) ومعنى المثل: النقد عند الحافر، أي عند بيع ذات الحافر (2) أو عند بيع الفرس الحافرة، من الحفر، لأنّ الفرس بشدّة وثبها تحفر الأرض (3) أو بيع الفرس ذا الحافر (4) وهو يتعلّق ببيع الفرس.

ويلاحظ أنّ هذا المثل يتألّف من ثلاثة ألفاظ.

وقد تحدّث بشأن تطوّر دلالته أربع حالات، حالتان تتعلّقان بالمثل كاملاً من الناحية المعنويّة، وحالة ثالثة تتعلّق بالمثل حينما يفقد ثلثيه الأوّل، ويظلّ يؤدّي كامل المعنى بثلثيه. وحالة رابعة تتعلّق بالمثل حينما يفقد ثلثيه الأوّلين، ويظلّ بالثلث الأخير والباقي يؤدّي كامل معنى المثل. وإنّ هذا الكلام بحاجة إلى شرح، وإنّ كلّ مرحلة من المراحل الأربع بحاجة إلى أن نقف عندها.

المرحلة الأولى. هذا المثل: النقد عند الحافرة، وعند الحافر، يشير إلى قيمة الفرس عند العرب. والفرس لفظاً يُطلق على المذكّر والمؤنّث. إنّ أغلى ما يملكه العربيّ فرسه.

---

(1) مجمع الأمثال للميداني. المثل رقم (2121) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ولسان العرب: "حفر"

(2) لسان العرب: "حفر"

(3) لسان العرب: "حفر"

(4) لسان العرب: "حفر"

ولا يبيعه إلا مضطرًا. فإذا اضطر لبيع فرسه لا يُعزّ به إلا أن يأخذ الثمن نقدًا، وعلى الفور. ومن هنا جاء المثل المرتبط ببيع الفرس أصلًا، فقيل: النقد عند الحافر أو النقد عند الحافرة.

المرحلة الثانية: هذا المثل بصيغته الكاملة، النقد عند الحافرة، وعند الحافر تحوّل من ارتباطه ببيع الفرس الغالي وحدة وجوب دفع الثمن على الفور نقدًا، تحوّل إلى استعمال العرب له عند اضطرارهم إلى بيع أيّ شيء عزيز لديهم، كأن يضطر إلى بيع جمله، أو ناقته، أو بيته، أو حديقته وما إلى ذلك. إن المثل تحوّل من استعماله في مجال الخصوص حال الاضطرار إلى بيع الفرس إلى استعماله في مجال العموم. إن الفورية مرتبطة بالمثل، إذ يجب دفع ثمن الشيء العزيز على نفس العربي نقدًا وفورًا، فإن دفع الثمن بهذه الكيفية هو الذي يعزّ العربي في اضطراره لبيع الشيء العزيز عليه.

المرحلة الثالثة: هذا المثل المؤلف من ثلاثة ألفاظ، بسبب كثرة دورانه على الألسنة تخلص من ثلثه الأول أي من لفظة: «النقد» وأصبح بلفظتيه الباقيتين «عند الحافرة» و: «عند الحافر» أصبح يدل على كامل المعنى السابق. فأصبح يقال: «التقى القوم فاقتتلوا عند الحافر وعند الحافرة (١)» والمقصود أن الخصمين بمجرد

(١) لسان العرب: «حفر»

أن إلتقيا دارت الحرب الضروس بينهما.
ويلاحظ من هذه المرحلة الثالثة أن التخلص كان متعلقا بالكلمة الأولى من المثل.

المرحلة الرابعة: هذا الجزء الباقي من المثل، بسبب كثرة ورانه على ألسنة تخلص من ثلثيه الأولين، أعني القول: رجع النقد عند، فأصبح يقال رجع فلان على حافرته وحافره، في حافره وحافرته، إذا رجع من حيث جاء.
فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾ تبين لنا أن لفظة الحافرة هنا هي الجزء الثالث، والأخير، والباقي من المثل، والذي يفيد معنى المثل كاملا.
إن كفار مكة الذين ينكرون البعث يستنكرون عودتهم أحياء مرة أخرى يوم القيامة، ويجحدون البعث وعودة الحياة إليهم وعودتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد أن ماتوا وغدا عظمهم رميما في القبور.

ويلاحظ أن الجزء الباقي من المثل يمثل أقوى لفظا ومعنى، وهو المتعلق بلفظ الحافرة ولفظ الحافر" فكل من اللفظين يدل على سرعة العودة من الطريق ذاته قبل اندثار آثار حافر الفرس الذي أثر في الطريق الترابي.
إن الإنسان حينما يجري ويعود قهقرا في الطريق ذاته يقال في حقه: عاد فلان على حافره وحافرته، لكي يستدل على الطريق بأثر حافر الفرس في التراب قبل اندثار

الأثر وإن خفي فإنه يفعل الرياح مثلا. وهذا معناه أن السائر إذا كان قد عاد ممن غير ضل الطريق لا يقال في حقه هذا الجزء الباقي من المثل، إذ لا يوجد أثر يدل على عمل القراء أصلا.

وهكذا يتبين أن اللفظ الذي جاء في الآية الكريمة إنما هو اللفظ الثالث والأخير من المثل، كما يتبين دور ظاهرة الاشتقاق، التي تتفوق فيها اللغة العربية، في احتفاظ اللفظة المشتقة بمعناها، وتوظيف العرب لها، كما يتبين أن دراسة حياة العرب قبل الإسلام مفيدة في الكشف عن أسرار استعمالات هذه اللغة العربية الشريفة، لغة القرآن الكريم.

والله تعالى أعلم.

٥ - الصّياصي :

لفظ الصّياصي جاء في القرآن الكريم مرّة واحدة وذكرت في سورة الأحزاب، في الآية الكريمة السّادسة والعشرين، علمًا بأنّ السّورة الكريمة تحدّثت عن غزوة بني قريظة في آيتين كريمتين هما السّادسة والعشرون، والسّابعة والعشرون. قال تعالى: ﴿وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرّعب فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم تطئوها. وكان الله على كلّ شيء قديرًا﴾

وقد سُمّيت السّورة الكريمة سورة الأحزاب بسبب حديث السّورة الكريمة حديثًا مستفيضًا عن هذه الغزوة، الّتي تُعتبر من الوجهة النّفسيّة أشقّ الغزوات على محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، لأنّ قبائل العرب، ممثّلة في قبيلة قريش وأحابيشها وتابعيها، وقبيلة غطفان وحلفائها، قد رمت المسلمين عن قوس واحدة في هيئة عشرة آلاف مقاتل، هذا إلى إظهار منافقي المدينة المنوّرة نفاقهم علنًا في هذه الغزوة، وغدر يهود بني قريظة علنًا، ونقضهم عهدهم مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وهكذا أحاطت هذا المثلّث الخبيث محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين. وكما تُسمّى هذه الغزوة بالأحزاب تُسمّى غزوة الخندق، بسبب عمل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الخندق من الجهة الشّماليّة العورة من المدينة المنوّرة. وهو الخندق الّذي اقترحه سلمان الفارسيّ رضي الله تعالى عنه.

وقد تحدثت السورة الكريمة عن غزوة الأحزاب في الآيات الكريمات من التاسعة حتى الخامسة والعشرين.

ولما كانت السورة الكريمة من المدنيات من القرآن الكريم الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، فذلك معناه أن السورة الكريمة قد أسهمت في بناء المجتمع المسلم، والأمة الإسلامية.

علمًا بأن غزوة الأحزاب التي استمرت عشرين يومًا (١) قد انتهت من اليوم الثالث والعشرين تقريبًا من شهر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة. وفي ذلك اليوم، ليتسبح بقين من شهر ذي القعدة انطلق النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى بني قريظة (٢).

إن سورة الأحزاب تحدثت في الكثير من الأمور التي محورها الأهانة حفظًا أو تضييعًا، وفيها عدد من الأحكام.

ونحن نود أن نتحدث عن لفظة الصياصي من زاوية تطور دلالتها، ومن زاوية معناها في الآية الكريمة. وكنا حينما درسنا سورة الأحزاب دراسة متأملة والتي طبعت سنة ألف وأربعمئة وثلاث هجرية، قد بينا أن خير من تكلم عن تطور دلالة لفظة "الصياصي" أمير البيان العربي، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، وذلك في كتابه الحيوان (٣) ولا نزال نرى هذا الرأي، فلم يمر بنا ما يلم بعد ذلك تحدث

(١) فتح الباري ٧/ ٣٩٣
(٢) فتح الباري ٧/ ٤٠٨ وانظر الحديث رقم ٤١١٧ فتح الباري ٧/ ٤٠٧ وانظر السيرة النبوية ٢/ ٢٠٠ وانظر فتح الباري ٧/ ٣٩٣
(٣) الحيوان ٢/ ٣٤٢

في لغظة الضياصم كما تحدث أمير البيان العربي أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

ونحن نود أن نتذكر تطور دلالة هذه اللفظة كما بيّن ذلك الجاحظ، حتى استعملت لفظة: "الضياصم" في القرآن الكريم بمعنى الحصون والآطام (١) وكما جاء في المعاجم وبعض المصادر.

من ضياصيهم: مِنْ حصونهم (٢) المفرد الضيصية، بكسر الصاد والأولى بعدها ياء ساكنة فصاد مكسورة فياء مفتوحة. والضيصية بمعنى الحصن والجمع ضياصي (٣) وتُطلق الضيصية أساسًا على الشوكة الموجودة في ساق الديك التي يقاتل بها (٤) وهذه هي المرحلة الأولى التي مرت بها اللفظة في تطورها الدلالي.

المرحلة الثانية: أطلقت فيها لفظة "ضيصية" على قرن الثور. ويُفهم من النصوص المختلفة أن ضمائر سببين شيئًا وراء إطلاق الضيصية على قرن الثور. السبب الأول هو أن الثور يقاتل بقرنه هجومًا ودفاعًا. والسبب الآخر هو الشبه الكبير بين شوكة الديك وقرن الثور، رغم أن حجم القرن أكبر.

---

(١) فرّق بعض علماء الآثار بين الحصون والآطام وهما مبنيان عسكريان فقالوا إن الحصن مبنيٌ ضخمٌ مربع الشكل مبني بحجارة ضخام ليس بينها حشو. أما الآطام، جمع أطم بضم وضمتين فمبنيٌ بحجارة صغار بينها حشو، وقد يتخذ الأطم سكنًا.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٩٥

(٣) انظر - مثلًا - مفردات الراغب الأصفهاني، ضيصية ٢/٤٨٠

(٤) الحيوان ٢/٣٤٤

المرحلة الثالثة: أُطلقت فيها لفظة: "صيصية" على شوكة الحائك التي بها تُرمى السَّداة (١) واللُّحمة (٢) من الثوب. فصيصية الحائك تشبه صيصية الديك وإن كانت أطول شيئاً (٣) ولأنها مانعة من فساد الحوك والغزل، ولأنها فريدة كالسلاح، متى شاء أن يجأ به إنساناً وجأه (٤) به. وقال زُرَيْد بن الصِّمَّة:

نظرتُ إليه والرِّماحُ تنوشُه (٥)، كوقع الصياصي في النسيج الممدَّدِ

وبيت زريد في شرعة وقع الرماح وتداركه. وهو من مقطوعة يرثي بها أخاه عبد الله بن الصِّمَّة (٦)

ومعنى البيت: إني في ميدان القتال نظرت إلى أخي عبد الله حينما رماح الأعداء تتخطفه من كل جانب وتقع على جسده كما تقع صياصي الحائك في النسيج الممدد، والقماش المصنوع.

المرحلة الرابعة: أُطلقت فيها لفظة "صيصية" على الحصن، الذي نزل منزلة شوكة الديك في ساقه والتي يقاتل بها الديك ويدافع بها ويتحصن.

---

(١) السَّداة، بفتح السين: ما نُسج من الثوب طولاً.
(٢) اللحمة، بضم اللام: ما نُسج من الثوب عرضاً.
(٣) الحيوان ٢/ ٣٤٢
(٤) وجأه: طعنه.
(٥) تنوشه: تتخطفه الرماح وتسرع في تناوله.
(٦) السيرة النبوية ٢/ ٦١٢

الرعب: أشد الخوف (١)

ونتحول، مستعينين بالله تعالى إلى تفسير الآيتين الكريمتين اللتين تتحدثان عن غزوة بني قريظة.
ولما كان الحديث عن مصير بني قريظة متصلاً بآية كريمة تتحدث عن مصير الأحزاب الذين هزمهم الله تعالى وحده لا شريك له، فإننا نود أن نفسر الآيات الكريمات الثلاث. قال تعالى (٢): ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها. وكان الله على كل شيء قديراً﴾
وتفسير الآيات الكريمات الثلاث، والله تعالى أعلم، على النحو التالي: ورد الله تعالى وحده لا شريك له الذين كفروا من قريش وغطفان وحلفائهما بغيظهم وحقد قلوبهم، لم ينالوا خيراً من نصر وغنيمة، بل رجعوا بكل خزي وهزيمة، بأن سلط الله تعالى على الأحزاب بعض جنده، فأرسل عليهم ريحاً آذتهم أشد الأذى، وملائكة عذاب سامتهم الخسف، وأرغمتهم على العودة من حيث أتوا بكل خزي وعار. وبذلك كفى الله تعالى المؤمنين القتال،

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني: "رعب" ١/٢٦١
(٢) سورة الأحزاب ٢٥-٢٧

وكان الله تعالى قوياً عزيزاً دائماً وأبداً.

وأنزل الله تعالى الذين ظاهروا الأحزاب وأعانوا الكافرين ضد المسلمين، من أهل الكتاب وهم بنو قريظة، أنزلهم عز وجل من حصونهم، وقذف في قلوبهم الرعب وأشد الخوف، تقتلون فريقاً منهم وهم المقاتلة (١) وتأسرون فريقاً، وهم النساء والذرية (٢) وأورثكم أرضهم: مزارعهم ومخازنهم (٣) وديارهم: ومساكنهم (٤) وأموالهم: سائر الأموال غير الأرض والدور (٥) وأورثكم أرضاً لم تطئوها: قيل هي أرض خيبر وقيل غير ذلك (٦) وكان الله تعالى قديراً على كل شيء، فلا يعجز الله تعالى شيء من الأرض ولا في السماء.

والله تعالى أعلم.

---

(١) فتح الباري ٧/٤١٢ حديث رقم ٤١٢٢

(٢) فتح الباري ٧/٤١٢ حديث رقم ٤١٢٢

(٣) تفسير الطبري ٢١/٩٨

(٤) تفسير الطبري ٢١/٩٨

(٥) تفسير الطبري ٢١/٩٨

(٦) انظر - مثلاً - تفسير الطبري ٢١/٩٨، ٩٩

٦ - لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله

جاء في القرآن الكريم جملة: "يستنكف" مرتين اثنتين في الآية برقم مئة و اثنتين وسبعين من سورة النساء الكريمة، كما جاءت جملة: "استنكفوا" مرة واحدة في الآية الكريمة التي تليها. قال تعالى (١):

لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله. وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً

وبشأن دراسة الجمل الثلاث من الآيتين الكريمتين نود أن نسير وفق الخطوات التالية:

أ - دراسة تحول الأصل اللغوي من المستوى الحسي إلى المستوى المعنوي.

ب - الحديث عن القرم الحسي والقرم المعنوي.

جـ - معنى الاستنكاف، وكونه مطية للتحول إلى داء أكبر، وهو الاستكبار.

والآن إلى الخطوة الأولى:

---

(١) سورة النساء ١٧٢ و ١٧٣

م = التَّرَمُّ الجِسّيّ، و التَّرَمُّ المعنويّ.

بمراجعة معاجم اللغة وكُتُبها يتبيّن أنّ صنف التَّرَمُّ الجِسّيّ يُعبَّرُ عنه بلفظة: «التَّنَكُّف» بفتح النون وسكون الكاف، و بلفظة: «التَّنَكَّف» بفتح النون والكاف، وهو مَرَضُ التَّنَكَّفة.

كما يتبيّن بمراجعة المعاجم وكتب اللغة أنّ صنف التَّرَمُّ النفسيّ يُعبَّرُ عنه بلفظة: «الاستنكاف» بمعنى الامتناع مِنْ باب الأَنَفة.

و إنّ كلاًّ من التَّنَكُّفَيْن بحاجة إلى تقديم الدّليل عليه.

بشأن المرحلة الأولى الجِسّيّة، جاء في المعجم الوسيط: «نكف» على سبيل المثال، ما يلي:

نَكِفَ الجِلدُ أن يَنْكَفَ نَكَفًا: أصابه مَرَضُ التَّنَكُّفة. و التَّنَكُّفة: إحدى غُدَدٍ صِغارٍ في أصل اللَّحْيِ، بينه وبين شَحْمة الأذن، تُسَمّى الغُدَدَ التَّنَكُّفِيّة. و النَّكاف، أو الحُمّى التَّنَكُّفِيّة، التهابٌ مُعْدٍ بالغُدَّة التَّنَكُّفِيّة مصحوب بحُمّى تَستَمِرّ خمسة أيام، مع تَوَرُّم خَيطٍ. وقد يُصابُ خَيطا البَنكرياس والمبيضان والخصيتان. (مج)

و بشأن المرحلة الأخرى المعنويّة، جاء في المعجم الوسيط أيضا: «استنكف من الشيء، وعنه: أَنِفَ وامتنع. ويقال: استنكف عن العمل: امتنع مُستَكبِرًا».

و نستطيع أن نفهم بشأن المرحلة الأولى الجسّية أنّ صنانت مرضاً جسّياً، ورَمًا عُضوياً.

و نستطيع أن نفهم بشأن المرحلة الأخرى أنّ صنانت مَرَضاً نفسياً، ورَمًا داخلياً.

كما نستطيع أن نفهم أنّ المرحلة الأولى الجسّية المتمثلة في الورم العُضوي، أفضت إلى المرحلة الأخرى المعنوية.

و بعبارة أخرى نستطيع أن نقول إنّ المَظهر الخارجي للمريض النكاف مِنْ وَرَم أحد جانبي العُنق، أفضى إلى الورم النفسي الداخلي، وقد تمثل ذلك الورم الداخلي فيما يُسمّى بداء الكِبْر أو الاستكبار، حيثما يُرى المتكبّر عارضاً عنه.

إنّ الشخص المريض بداء النكاف، بسبب الورم في عُنقه، يضطر لأن يرفع رأسه فيبدو شكله شكل المتكبّر المقيت.

و إنّ هذا المظهر الخارجي غير المحبوب للمريض النكاف رغم أنّه يبدو في شكل الشخص المستعيد المتكبّر، فإنّ هذا المظهر المغيف، كان له القدرة على أن يلجَ إلى داخل المريض بداء الكِبْر، وهاهو ذا داء الكِبر يظهر معنوياً في حيثية الكِبْر التزائف، والتعالي المقيت، والامتناع من باب الأنفة عن فعل ما ينبغي فِعلهُ من باب مكارم الأخلاق.

ب - تبيّنا التلازم القوي بين المرحلتين الجسّية والمعنوية، وكيف تحوّلت من المرحلة الجسّية إلى المرحلة المعنوية، كما تبيّنا تأثير المريض بداء النكاف شكلاً ومعنىً في ذات الشخص المُريء للاستكبار.

د - تبيّنا أنّ هناك ثلاث مراحل مترابطة ومتطوّرة تمّ فيها التحوّل من السيّئ إلى الأسوأ: داء النقاف حسّاً، داء الاستنكاف حسّاً ومعنىً، داء الاستكبار أو الكِبْر حسّاً ومعنىً.

ونتحوّل الآن، مستعينين بالله تعالى دائماً وأبداً، إلى تفسير الآيتين الكريمتين. المعنى، والله تعالى أعلم.

لن يستنكف المسيح عيسى عليه السلام، ولن يمتنع عن أن يكون عبداً لله تعالى، فإنّ أوّل ما جرى على لسانه وهو في المهد كما جاء في سورة مريم (١): «قال إنّي عبد الله» ولن يستنكف كذلك الملائكة المقرّبون، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ومن يستنكف عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ويمتنع بباعث من أنفة الكاذبة والعزة الآثمة، ومن يستكبر عن إفراده عزّ وجلّ بالعبادة، بباعث الكِبْر المقيت، والتعالي الزائف، فإنّ الله تعالى سوف يحشرهم إليه جميعاً لفصل الحساب. فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم الله تعالى أجورهم يوم القيامة ثواباً على الحسنات التي قدّموها في الحياة الدنيا. وأمّا الذين استنكفوا عن توحيد الله تعالى، واستكبروا عن إفراده عزّ وجلّ بالعبادة، فيعذّبهم الله تعالى عذاباً أليماً في نار الجحيم، ولا يجدون لهم: «وليّاً ينجّيهم من عذابه، وينقذهم منه، ولا نصيراً، يعني ولا ناصراً ينصرهم» (٢).

والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة مريم ٣٠

(٢) تفسير الطبري ٦/٧

٧ - الحَنَف والجَنَف :

مِنْ مظاهر عظمة اللغة العربية، لغة القرآن الكريم أنّ بعض ألفاظها لديه القدرة على إفادة المعنى، ومن وراء المعنى إفادة الاتجاه. فعلى سبيل المثال إذا كنتَ أسفل ناطحة سحاب وأخذت تنظر إليها من أسفلها إلى أعلاها قلت أنا أشرئبّ سَمْكَ العمارة. وهذا المعنى جاء في القرآن الكريم في سورة النازعات بشأن النظر إلى السماء. قال تعالى (١): ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء. بناها. رفع سمكها فسوّاها ﴾ أي جعل الله تعالى سَمْكَ السماء في جهة العلوّ رفيعاً (٢)

فإذا صعدتَ إلى سطح العمارة ونظرتَ مِنْ أعلاها إلى أسفلها فأنت تسبر عُمْقَ العمارة. إذَنْ السَّمْكُ يقتضي النظر من أسفل إلى أعلى، والعُمْقُ يقتضي النظر من أعلى إلى أسفل.

وإنّ شيئاً كهذا يمكن أن يُقال عن القعود والجلوس. إنّ صيغة القاعد والجالس واحدة، ولكنك تستعمل جملة "قعد" إذا كنت تريد الاتجاه من الأعلى إلى الأسفل. تقول: كان قائماً فقعد. كما تستعمل جملة: "جلس" إذا كنت تريد الاتجاه من الأسفل إلى الأعلى. تقول: كان مضطجعاً فجلس. وقد جاء بشأن التحوّل المطرد أثناء ذكر الله تعالى من القيام، إلى القعود، فإلى كوننا

---

(١) سورة النازعات ٢٧ و ٢٨

(٢) الجلالين و لسان العرب: "سمك"

على جنوبنا، وذلك عن حال الانتباه من القوة إلى الضعف، جاء بشأن ذلك في سورة النساء (١) قوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم. فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة. إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ وقد جاء الانتباه من الضعف إلى القوة حال مس الضر العبد، بإرادة الله تعالى، إذ يتم التحول من كون الإنسان على جنبه، إلى كونه قاعداً، إلى كونه قائماً، وذلك في الآية الكريمة من سورة يونس. قال تعالى (٢): ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه. كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾

وإننا سنشير هنا بشأن قدرة بعض ألفاظ اللغة العربية على إفادة بعض تعيين الاتجاه، يمكن أن نتبين واضحاً بشأن كل من لفظي الحنف والجنف. وإليك ما يقول الراغب الأصفهاني (٣): "الحنف صرف مثل عن الضلال إلى الاستقامة. والجنف مثل عن الاستقامة إلى الضلال" ويقول (٤): "أصل الجنف ميل في الحكم، فقوله (٥)

---

(١) سورة النساء ١٠٣

(٢) سورة يونس ١٢

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني: "حنف" ١/ ١٧٦

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني: "جنف" ١/ ١٣١

(٥) سورة البقرة ١٨٢

: ﴿ فمن خاف من موصٍ جنفاً ﴾ أي ميلاً ظاهراً "

ولنقف في تعاملنا مع الحنف والجنف، نود أن نتعامل مع أول آية من القرآن الكريم تعاملت مع كل من هاتين المادتين. وهما لم آيتان كريمتان سنتعامل معهما بإذن الله تعالى، وهما من سورة البقرة المدنية الكريمة. وهذه هي الآية الكريمة التي تتعامل مع الحنف. قال تعالى (١): ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ وهذه هي الآية الكريمة التي تتعامل مع الجنف. قال تعالى (٢): ﴿ فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم ﴾

ونود بشأن الحنف والجنف أن نبدأ بالحديث عنهما من الوجهة اللغوية. إن كلاً من اللفظين خضع لتطور دلالة وذلك على النحو التالي:

أ - يدل كل من الحنف والجنف أولاً الأمر على مجرد الميل حسياً.

ب - دل كل من اللفظين بعد ذلك على الميل وعلى الاتجاه. لقد دل الحنف على الاتجاه من الشر إلى الخير، ودل الجنف على الاتجاه من الخير إلى الشر.

---

(٢) سورة البقرة ١٢٥

(٢) سورة البقرة ١٨٢

حـ - استعمل القرآن الكريم المعنيين استعمالاً دينياً. فالحنيف يدل على من اتبع ملة إبراهيم عليه السلام ما لم يأت بما يخرجه عن ذلك، فيعرض عما سواها. والمتجانف هو المائل بشأن ما، أي الإسلام من الوصية عن الحق خطأ غير مقصود، وهذا هو الجنف. وإن كان الميل عن الحق عمداً فهو الإثم (١)

ونتحول الآن إلى دراسة الآية الكريمة المتعلقة بالحنف. قال تعالى (٢): ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾

أ - أرسل الله تعالى كل رسله، ابتداءً بنوح عليه السلام، وانتهاءً بمحمد صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام لله تعالى رب العالمين، أي بتوحيد الله تعالى وإفراده عز وجل بالعبادة.

ب - جعل الله تعالى لكل رسول شرعة ومنهاجاً، طريقاً خاصاً به يسلكه ويفضي هذا الطريق وهذا المنهج إلى شريعة تتمثل فيما توحيد الله تعالى وإفراده عز وجل بالعبادة. وقد جعل الله تعالى لكل رسول شريعته ومنهاجه.

جـ - يقوم النبي باتباع الرسول المأمور باتباعه وتطبيق شريعته. وكل من الرسالة والنبوة محض فضل من الله

---

(١) تفسير القرطبي ٦٤٦ و ٦٤٧

(٢) سورة البقرة ١٣٥

تعالى. ويشترك الرسول والنبيّ من إيحاء الله تعالى لهما، وتكليم الملائكة لهما. ويزيد الرسول بما خصّه الله تعالى به من شريعة. والنبوّة هي الطريق الوحيد للرسالة. وبعض الأنبياء يكرمهم الله تعالى بالارتقاء إلى مرتبة الرسالة. وبذلك يتبيّن أنّ كلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولا.

د- أولو العزم من الرسل أعظم رسل الله تعالى، وهم خمسة، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، وزعيمهم محمد صلّى الله عليه وسلّم، بنصّ الآية الكريمة السابعة من سورة الأحزاب، والآية الكريمة الثالثة عشرة من سورة الشورى. وأهم صفات أولي العزم من الرسل هي صفة الصبر. وقد نصّت على هذه الصفة الآية الكريمة الخامسة والثلاثون من سورة الأحقاف المكية.

هـ- أوّل رسل الله تعالى نوح عليه السلام ظلّ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وقد بيّنت ذلك الآية الكريمة الرابعة عشرة من سورة العنكبوت.

و- أرسل الله تعالى إبراهيم عليه السلام، أبا الأنبياء، بدين الإسلام وبالحنيفيّة السمحة في صورتها الأولى وقد آتى الله تعالى إبراهيم عليه السلام الصحف (1)

ز- موسى عليه الصلاة والسلام كليم الله تعالى، وقد آتاه الله تعالى التوراة.

ح- عيسى عليه الصلاة والسلام هو ابن مريم، وقد آتاه

---

(1) سورة الأعلى 19

الله تعالى الإنجيل.

ط - محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وأشرف المرسلين، وقد أرسله الله تعالى بحنيفية جده إبراهيم في صورتها الثانية والكاملة، وأرسله بدين الإسلام، الناسخ لكل الأديان الأخرى، السماوية وغير السماوية. وقد جاء في هذا المعنى قوله تعا (1): ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وقوله تعالى (2): ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾

وبشأن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم حنيفية جده إبراهيم عليه السلام جاء في سورة النحل المكية الكريمة (3) قوله تعالى: ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ وجاء في حنيفية إبراهيم عليه السلام في سورة النحل (4) قوله تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾

وبفضل الله تعالى تحدثنا من قبل عن لفظة: «الحنف»

وبعد هذه الجولة مع مفردات الآيتين الكريمتين ومرادفاتها نتحول، مستعينين بالله تعالى، إلى تفسيرهما.

---

(1) سورة آل عمران 19

(2) سورة آل عمران 85

(3) سورة النحل 123

(4) سورة النحل 120

التفسير:

ونبدأ بتفسير الآية الكريمة التي تتعامل مع الخلف.

قال تعالى (١): ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا. قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾

المعنى، والله تعالى أعلم، وقال اليهود للمسلمين كونوا هودًا تهتدوا، وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا. وكان كل من اليهود والنصارى قد جاء منهم من القرآن الكريم قوله تعالى (٢) ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ وسبق أن قلت في التفسير البسيط (٣) عن قول الفريقين ما يلي:

« إن اليهود أتباع موسى عليه السلام يقولون إن النصارى أتباع عيسى عليه السلام ليسوا على شيء يعتد به. وإن النصارى يقولون إن اليهود ليسوا على شيء يصح أو يعتد به. يقول كل من الفريقين ذلك في الوقت الذي يقرأ فيه كل من الفريقين التوراة والإنجيل. وكل منهما مصدق للآخر، لأنهما من عند الله ولأن الكتب السماوية كلها يصدق بعضها بعضا، ولأن في كتاب اليهود تصديق عيسى وفي كتاب النصارى تصديق موسى »

قل يا محمد، ردًا على اليهود والنصارى، بل، وفي ذلك الإضراب عن زعم كل من اليهود والنصارى أنهم على الهدى، بل نتبع ملة إبراهيم عليه السلام حنيفًا مائلًا عن كل

---

(١) سورة البقرة ١٣٥

(٢) سورة البقرة ١١٣

(٣) التفسير البسيط ١/ ٢١٢

الديانات الضالة، إلى الدين القويم والصراط المستقيم، إلى دين الإسلام، إلى حنيفية إبراهيم عليه السلام. إن الله تعالى بعث إبراهيم عليه السلام بالحنيفية السمحة في صورتها الأولى. وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة، حنيفية جده إبراهيم عليه السلام، في صورتها الثانية والكاملة. إن إبراهيم عليه وسلم لم يك من المشركين مطلقاً.

وقد جاء من اليهود والنصارى في سورة التوبة (١) قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون (٢) قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾

وهذا يتبين أن الحنف في اللغة يفيد الميل الحسي، أما في الآية الكريمة فإنه يفيد الميل المعنوي، فالحنيف هو المائل عن الأديان الضالة، المتجه عمداً وقصداً إلى الدين الصحيح، دين الإسلام لله تعالى رب العالمين.

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة الأخرى التي تتحدث عن الجنف في سورة البقرة الكريمة في قوله تعالى (٣): ﴿ فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه.

---

(١) سورة التوبة ٣٠.
(٢) يضاهئون: يشابهون به. الجلالين.
(٣) سورة البقرة ١٨٢

إنّ الله غفورٌ رحيمٌ نستطيع أن نقول من تفسيرها، والله تعالى أعلم، فمن خاف من موصٍ جنفاً وميلاً من مجال الوصيّة على طريق الخطأ وليس على طريق العمد، أو خاف من موصٍ خطأً متعمّداً فأوصى بغير ما أمره الله تعالى به، فأصلح هذا المصلح بين الموصين وبين ورثته فلا إثم عليه، بل إنّه مأجورٌ على نيّته الحسنة، وعمله الصالح، إذ أعاد الأمور إلى نصابها وحرّرها الوجهة الصحيحة. إنّ الله تعالى غفورٌ لمن تاب من ذنبه وأناب إلى الله تعالى بالعودة إلى الوصيّة بما أمر الله تعالى به، والله تعالى رحيمٌ بمن خافه عزّ وجلّ واتّقاه وقبل توبته.

وهكذا يتبيّن أنّ الجنف في اللغة يفيد الميل الحسّي عن الصواب إلى الخطأ، أمّا في الآية الكريمة فإنّه يفيد الميل المعنويّ. فالمتجانف هو المائل عن الصواب إلى الخطأ عن طريق السهو وليس عن طريق العمد. فإنّ المائل إلى الخطأ عمداً هو الآثم.

والله تعالى أعلم.